

# التأثيرات النقدية الغربية المعاصرة في كتابات

## عبد الملك مرتاض

د. فاطمة عبد الرحمن

جامعة الشلف

تجمعت خيوط الخطاب النقدي الجزائري بفضل جهود عدد من النقاد تنظيرا وتطبيقا، وتبلورت خصوصيته في مواجهة النصوص الأدبية، غير أن تجربة الدكتور عبد الملك مرتاض النقدية شكلت اللبنة الأساسية في تشكيل هذا الخطاب، ومنحته موقعا ضمن منظومة الخطابات النقدية العربية، في مقابل نقد غربي يستحق التأمل، والتمثل الجيد، فكيف نقرأ تجربة مرتاض النقدية في ضوء ذلك؟.

استهل مرتاض مساره النقدي برؤية منهجية انطباعية، وذلك منذ نهاية الستينات ومستهل السبعينات، والانطباعية impressionnisme نشأت أساسا في أحضان الفن التشكيلي، داعية إلى حرية الفكر، وملامسة الواقع مباشرة، متأثرة بالفلسفة المثالية في بعدها الموضوعي بنحو خاص، متخذة من الانطباع الشخصي أساسا لإدراك الواقع، هكذا أرادت الانطباعية "تعليم الناس كيف ينظرون إلى الأشياء"<sup>(1)</sup>.

---

(1) - إتيان سوريو، الجمالية عبر العصور، ترجمة ميشال عاصي، ط2، منشورات عويدات، بيروت - باريس،

وفق هذا التصور تسربت الانطباعية إلى عالم النقد الأدبي، باعتماد خصوصية "نقد ينطلق من النفس إلى النفس" على حد تعبير سانت بييف S. Beuve، و"نقد في قالب شعري" عند أناتول فرانس A. France<sup>(1)</sup>.

ونجد لهذه الروح النقدية بصمة في كتابيه "القصة في الأدب العربي القديم"، و"نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر"، غير أنها تجلت أكثر في كتابه الأول، الذي خصصه لمقاربة ألوان شتى من القصص العاطفي، والاجتماعي، والفكاهي، والفلسفي في الأدب العربي القديم، في سياق ثلاثة أبواب؛ باب أول خصصه للحديث عن القصة العاطفية، بشقيها الشعرية والرومانتيكية، وباب ثانٍ عنوانه "ألوان من القصص"، ضمّنه أحاديث للجاحظ وابن دريد، كما طرق باب القصص الفكاهي والاجتماعي، ليختتم بباب ثالث حول القصة الفلسفية، متمثلة في رسالة الغفران لأبي العلاء المعري، وقصة حي بن يقظان لابن طفيل<sup>(2)</sup>.

ومن الأحكام الانطباعية التي أصدرها الناقد في كتابه هذا، وهو بصدد المقاربة والتحليل، قوله في قصة "قيس لبنى": "شعر ابن ذريح يفيض حباً، ويتفجر تهيماً، وينبجس لوعةً وصباةً، وندماً حنيناً، كأن أبياته، بل كأن ألفاظه كتبت بمداد الحزن، واللهفة، والنحيب"<sup>(3)</sup>.

أما "قصة جميل وبثينة"، فقال فيها: "ومن عجيب الأمر أني لم أر قصيدة تؤاخي هذه بحرا ورويا"<sup>(4)</sup>، دلالة على ما ميزها من براعة في النظم، والإيقاع، وأضاف

---

(1)- يوسف وغليسي، النقد الجزائري المعاصر من اللانسونية إلى الألسنية، إصدارات رابطة إبداع الثقافية، الجزائر، د.ط، 2002، ص 68.

(2)- ينظر: عبد الملك مرتاض، القصة في الأدب العربي القديم، دار ومكتبة الشركة الجزائرية للتأليف والترجمة والطباعة والتوزيع والنشر، الجزائر، ط1، 1968، ص 305-306-307.

(3)- المرجع نفسه، ص 134.

(4)- المرجع نفسه، ص 100.

فقال: "أيّ قصيدة أشد تعبيراً عن حالة الحزن من هذه التي رويت لك؟ بل أي شعر يمكن أن يكون أحزن من هذا في لغة الضاد،<sup>(1)</sup>.

وشيناً فشيناً تراجعت هذه الروح الانطباعية الواضحة فيما قدمه من أعمال، فلا نكاد نجد لها أثراً إلا ما جاء على سبيل العفوية، والسجية النقدية، في كتابه السالف الذكر "نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر".

وذلك بحكم تغير رؤيته النقدية فيما يخص المقاربة الانطباعية في مواجهة ما يثيره النص من آفاق قرائية لا حدود لها، ووحجة هذا تغيير تحفظه بشأن مقاربات "الانطباعيين المتعصبين الذين يتسلطون ظلماً وعدواناً على المؤلف، فيزعجونهم بالترهات طورا ويطرونه بالمدح طورا، ويقذفونه بالتحريح والقدح طورا آخر دون أن يلتفتوا، أو يكادوا يلتفتون، إلى النص"<sup>(2)</sup>، لذا لم تستغرق المقاربة الانطباعية في كتابات مرتاض النقدية "إلا حيزاً نقدياً محدوداً، وهذا قبل أن يهتدي إلى المنهج التاريخي الذي تزامن مع انشغالاته الأكاديمية"<sup>(3)</sup>.

هكذا تفتن مرتاض إلى واحد من أخطر المزالق التي قد تقع فيها الدراسة النقدية؛ متمثلاً في تهميش النص، وتجاوزه بشكل غير مبرر، إلى إصدار أحكام ذاتية بخصوص بما يدور في فلكه من سياقات، وملايسات لا يسعها إلا أن تكون ثانوية بالنسبة له، مهما فعلت حضورها فيه.

أما عن معالجة النصوص الأدبية وفق رؤية التاريخية، فقد تنبه إليها الناقد الفرنسي غوستاف لانسون 1857 - 1934 الذي نادى بالروح العلمية في الدراسة

---

(1)- المرجع نفسه، ص 103.

(2)- عبد الملك مرتاض، ألف ليلة وليلة (تحليل سيميائي تفكيكي لحكاية حمال بغداد)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، 1993، ص 11.

(3)- يوسف وغليسي، الخطاب النقدي عند عبد الملك مرتاض (بحث في المنهج وإشكالياته)، إصدارات رابطة إبداع الثقافية، الجزائر، دط، 2002، ص 37.

التاريخية للأدب، ثم تعاضم أمر هذا الطرح، وشاع الحديث عما سمّاه بالتاريخانية الجديدة New – Historicism، والتحليل الثقافي Cultural Analysis بزعمه الناقد الأمريكي ستيفن غرينبلات، أما عن جوهر هذا المعطى المنهجي، فتمثل في ضرورة "قراءة النص الأدبي في إطاره التاريخي والثقافي؛ حيث تؤثر الإيديولوجيا، وصراع<sup>(1)</sup>. ذلك أن النص عبر تشكيلاته المختلفة لا يسعه الانسلاخ كلياً، وإعلان القطيعة تجاه تلك التركيبة المعقدة من المرجعيات التاريخية، والثقافية، والإيديولوجية، والاجتماعية، والفلسفية التي تمنح النص هوية أدبية معينة، وتشكيل ما دون آخر. في ضوء هذا المعطى نضجت فكرة المقاربة التاريخية، وكان لها أثر في النقد الجزائري؛ حيث ظهرت وازدهرت خلال الستينات وبداية السبعينات على يد عدد من النقاد، يتقدمهم مرتاض بمؤلفاته:

- نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر 1925-1954.

- فن المقامات في الأدب العربي.

- فنون النشر الأدبي في الجزائر 1931-1954.

وتحيلنا عتبات العنونة في هذه المؤلفات منذ الوهلة الأولى إلى الخيار المنهجي الذي تبناه الناقد في دراسته للأدب الجزائري المعاصر، وكذا فن المقامات العربية، وفنون النشر في الجزائر متمثلاً في المقاربة التاريخية هذا من جهة، ومن جهة أخرى "تشارك هذه الكتب الثلاثة، بحكم إطارها المنهجي الموحد، في أنها لا تكتفي بدراسة قلة من النصوص، وإنما تتجاوز ذلك إلى دراسة المتون الأدبية العريضة التي تمتد على فترة تاريخية مطولة لا تقل عن عشرين سنة، من جهة، كما أن الفاصلة التاريخية بين زمن تلك المتون، وزمن دراستها لا تقل - في أحسن الأحوال - عن خمسة عشرة

(1)- ميجان الرويلي وسعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، ط1، مكتبة الملك فهد الوطنية، السعودية، 1995، ص

سنة، من جهة أخرى، وهي إحدى سنن النقد التاريخي الذي يأبى دراسة النصوص المتزامنة مع الناقد، ولا يقوى على ذلك ما لم تدخل تلك النصوص متحف تاريخ الأدب"<sup>(1)</sup>.

وفي كتابه "نخضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر" عمد مرتاض إلى رصد بواكير نخضة الأدب العربي في الجزائر، مركزا على الفترة ما بين (1925-1954)، وقد حمل على عاتقه في هذه الدراسة رسالة التأريخ للأدب الجزائري ووضعه الموضوع الذي يستحق من منظور الفكر والثقافة والتاريخ.

واستمر الحس التاريخي يلزم رؤيته النقدية، في دراسته لـ"فن المقامات في الأدب العربي"، وهي عبارة عن رسالة تقدم بها إلى جامعة الجزائر لنيل شهادة الماجستير سنة 1970، وما ميز هذه الدراسة، أصالة الطرح المعرفي، والتفصيل في معالجة فن المقامات، وتتبع مسارها التطوري في تاريخ الأدب العربي، مع مراعاة التسلسل الزمني، وتسييل الضوء على جماليات النص، من منظور بلاغي.

أما دراسته لفنون النشر الأدبي في الجزائر، فقد تقدم بها إلى جامعة السوربون بباريس لنيل شهادة الدكتوراه دولة في الآداب سنة 1983، تحت إشراف المستشرق الفرنسي أندري ميكال، وقد ناقش خلالها "مرحلة النهضة الوطنية في الجزائر وهي تبتدئ ببدية ظهور العلماء سنة إحدى وثلاثين وتسعمائة وألف، وتمتد إلى اندلاع ثورة التحرير في عام أربعة وخمسين وتسعمائة وألف"<sup>(2)</sup>.

وذلك على امتداد ثلاثة أبواب بعناوينها؛ خصص الأول منها للحديث عن الحياة العامة؛ السياسية، والاجتماعية، والثقافية، والفكرية، وثانيها لفنون النشر الأدبي؛

---

(1)- يوسف وغليسي، الخطاب النقدي عند عبد الملك مرتاض، مرجع سابق، ص 38.

(2)- عبد الملك مرتاض، فنون النشر الأدبي في الجزائر (1931-1954)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،

د.ط، 1983، ص 2.

متمثلة في المقالة، والقصة بنوعيهما القصيرة، والطويلة، والمسرحية، والخطابة، والمذكرات، والسيرة الذاتية، والرسائل، وغير ذلك مما يندرج ضمن حركة التأليف، أما ثالثها فأفردته<sup>(1)</sup>.

لقد تطرق مرتاض إلى كل هذه الفنون بشيء من التفصيل في العرض، والدقة في ضبط جماليات النص الأدبي بغض النظر عن الفن الذي ينتمي إليه، وما يسجل في هذه الدراسة على حد تعبير يوسف وغليسي أهما: "تهيمن عليها روح تاريخية بيّنة"<sup>(2)</sup>.

ولم يكن مرتاض بمعزل عن تلك الثورة المنهجية العارمة التي شهدتها الخطاب النقدي في العالم، حيث أعلن قطيعته مع مقولة السياق، واعتبرها مجرد إجراء مرحليا كان لا بد من التخلي عنه؛ لأنه لم يعد يستجيب لتحديات النص، وما يثيره من تساؤلات، فكانت البداية مع التجريب البنيوي المطّعم أحيانا بقراءات أسلوبية راحت تفرض نفسها بشكل أو بآخر.

ويعد العالم اللغوي "رومان جاكسون R-jakobson" 1896-1982 أول من وظّف اصطلاح *structuralisme*، وأكد جدواه في الممارسة النقدية الإجرائية، رفقة كلود ليفي شتراوس - Claude Lévi - Strauss<sup>(3)</sup>.

وبالمثل نجد لهذا الاصطلاح عددا من المقابلات العربية، ومن ذلك ما ذكره يوسف وغليسي: البنيوية، والبُنيوية، والبُنيانية، والبُنائية، والبُنوية، والبنيوانية، والبنيئية،

---

(1) - ينظر: المرجع نفسه، ص 535-545.

(2) - يوسف وغليسي، الخطاب النقدي عند عبد الملك مرتاض، مرجع سابق، ص 43.

(3) - ينظر: جميل حمداوي، دراسات أدبية ونقدية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2007، ص 42-43.

والهيكلية، والهيكلائية، والتركيبية، والوظيفية، والمنهج الشكلي، والمذهب البنيوي، والمنهج البنيوي، والنظرية البنيوية، والمذهب التركيبي، والمنهج الهيكلياني<sup>(1)</sup>.

وقد أبدى "مرتاض" رأيه بشأن مصطلح "بنيوية" الذي تداوله النقاد العرب بشكل لافت للنظر، أكثر من أي مقابل آخر؛ مؤكدا وجود خطأ في صياغته بهذا الشكل، "وذلك عوضا عن الاستعمال النحوي السليم الذي هو إما «بنيوية»، وذلك كما تقول في النسبة إلى «فتية» «فتيبي» على القياس؛ لأنك تجريه مجرى ما لا يعتل؛ وهو مذهب أبي عمرو بن العلاء، كما يمكن أن يقال: «بنوي»، وهو في رأينا أخف نطقا، وأكثر اقتصادا لغويا، وهو مذهب يونس بن حبيب<sup>(2)</sup>، غير أنهم يصرون على إفساد العربية "ذلك بأن الاستعمال الخاطئ حين يصر على استعمال «البنيوية» فهو إنما ينسب هذا المذهب إلى لفظ غير موجود في الأصل؛ لأن «البنيوية» تعني أن الأصل هو «بنيوية»؛ وذلك حتى يمكن قلب الياء الثانية واوا<sup>(3)</sup>.

ولا يوجد لذلك مبررا، غير إدراج هذا الخطأ ضمن قاموس الأخطاء الشائعة، وستهجان مرتاض لهذا الاستعمال إنما لصدوره عن أهل الاختصاص، ممن امتلكوا شرف الممارسة النقدية، التي تقتضي التأمل في كل ما له صلة باللغة قبل أي شيء آخر.

وقد اكتملت معالم هذا التوجه البنيوي مع أعلام المدرسة الفرنسية أمثال "رولان بارت"، و"ميشال فوكو"، و"جاك دريدا"، و"جوليا كريستيفا"، ودعواتهم إلى نظرية جديدة في الكتابة، ورؤية نقدية تنظر إلى النص على أنه بنية كلامية تقع ضمن بنية

---

(1)- ينظر: يوسف وغليسي، إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان- الجزائر، ط1، 2008، ص 126.

(2)- عبد الملك مرتاض، في نظرية النقد (متابعة لأهم المدارس النقدية المعاصرة ورصد لنظرياتها)، دار هومة، الجزائر، د.ط، 2002، ص 190-191.

(3)- المرجع نفسه، ص 191.

لغوية شاملة، وأن النص مكون من جملة من الوحدات الدالة، التي شَبَّهها دو سوسير بوجهي الورقة الواحدة، في اتصال دوالها بمدلولاتها<sup>(1)</sup>.

وقد ظهر هذا الطرح المنهجي لدى مرتاض خلال دراساته:

- "الخصائص الشكلية للشعر الجزائري الحديث" سنة 1981.
- "الألغاز الشعبية الجزائرية" و"الأمثال الشعبية الجزائرية" سنة 1982.
- "النص الأدبي من أين؟ وإلى أين؟" سنة 1983.
- "بنية الخطاب الشعري" سنة 1986.
- "عناصر التراث الشعبي في اللاز" و"في الأمثال الزراعية" سنة 1987.
- "الميثولوجيا عند العرب" سنة 1989.
- "القصة الجزائرية المعاصرة" سنة 1990.

ففي الكتاب الأول قام بدراسة الألغاز الشعبية الجزائرية مروراً بعدد من المحطات، حيث حدد بداية مضمونها، مشيراً إلى قيمتها الحضارية وما اتصل بها من زمان ومكان، ثم تطرق إلى تحليل شكلها الفني تحليلاً لغوياً وأسلوبياً<sup>(2)</sup>.

غير أن المثير للانتباه "هو أن تطبيق المنهج البنوي لا ينسحب على الدراسة من ألفها إلى يائها، وإنما يتجلى فقط في القسم الثاني من الكتاب، الذي يعالج الشكل الفني للألغاز الشعبية والذي ينصبّ على دراسة لغة الألغاز وأسلوبها دراسة تراوح بين البنوية والأسلوبية"<sup>(3)</sup>.

---

(1)- ينظر: يوسف وغليسي، النقد الجزائري المعاصر من اللانسونية إلى الألسنية، مرجع سابق، ص 119-120.

(2)- ينظر: عبد الملك مرتاض، الألغاز الشعبية الجزائرية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.ط، 2007، ص 177-178.

(3)- يوسف وغليسي، الخطاب النقدي عند عبد الملك مرتاض، مرجع سابق، ص 51.



وبالمقاربة ذاتها عمد مرتاض إلى معالجة الأمثال الشعبية الجزائرية<sup>(1)</sup>، أما الأمثال الزراعية فأشار خلال مقارنته لها إلى عدد من الجزئيات الهامة؛ متمثلة في الزمن، والبناء اللغوي، والصوت، على امتداد خمس فصول<sup>(2)</sup>، ولا تظهر المقاربة الألسنية إلا فيما تعلق بدراسة لغة الأمثال وإيقاعها.

وبالمثل بعد فراغه من الحديث عن جملة من المضامين السياقية، قام مرتاض بمعالجة عدد من المعطيات الفنية في الخطاب الروائي "اللازم" للطاهر وطار، بما حمله من شخصيات، وحيز، وزمان، وإيقاع<sup>(3)</sup>؛ أي مستويات التشكيل الصوتي.

أما مؤلفه الآخر "الميثولوجيا عند العرب" فقد تحدث في ثناياه عن منظومة من الأساطير، والمعتقدات العربية العتيقة، مناقشا مفهوم الأسطورة، ومضامينها، وما تثيره من قضايا فنية، مع تقديم عدد من النماذج<sup>(4)</sup>، ويظهر الطرح الألسني في هذه الدراسة في معالجة فنيات كتابة الأساطير العربية.

وفي حين تحدث الناقد في كتابه "القصة الجزائرية المعاصرة" عن هذا الفن الأدبي؛ من حيث المضامين، والشخصيات، والحيز، والمعجم الفني<sup>(5)</sup>، مع التركيز على البعدين الاجتماعي والوطني في مناقشة هذه المضامين، في حين تبرز فعالية المناهج الألسنية الجديدة في القسمين الثاني والثالث المتعلقين بدراسة الشخصية، والحيز،

---

(1)- ينظر: عبد الملك مرتاض، الأمثال الشعبية الجزائرية (تحليل لمجموعة من الأمثال الزراعية والاقتصادية)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.ط، 2007، ص 175-176.

(2)- ينظر: عبد الملك مرتاض، في الأمثال الزراعية (دراسة تشريحية لسبعة وعشرين مثلا شعبياً جزائرياً)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.ط، 1987، ص 211.

(3)- ينظر: يوسف وغيلسي، الخطاب النقدي عند عبد الملك مرتاض، مرجع سابق، ص 53.

(4)- ينظر: عبد الملك مرتاض، الميثولوجيا عند العرب (دراسة لمجموعة من الأساطير والمعتقدات العربية القديمة)، المؤسسة الوطنية للكتاب/ الدار التونسية للنشر، الجزائر/ تونس، د.ط، 1989، ص 135.

(5)- ينظر: عبد الملك مرتاض، القصة الجزائرية المعاصرة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د.ط، 1990، ص 239-240-241.

والمعجم الفني، إلا أنه يعود ليناهض جوهر هذه المناهج من جهة ثانية؛ حيث يعرض لبعض «الهئات الألسنية» لدى بعض الكتاب، بما ينافي وصفية المناهج النصية<sup>(1)</sup>. كما قام بمقاربة شكلانية ثلاثية وخمسين قصيدة على امتداد الفترة ما بين 1920 - 1954، وذلك في مؤلفه (الخصائص الشكلية للشعر الجزائري الحديث)، متقصيا مسائل صوتية وفنية ومعجمية وكذا ما اتصل بأسلوب العنونة، معتمدا في ذلك الإحصاء كتقنية منهجية معللا إياه بعدد من المعطيات التاريخية، مع تعزيزه بطرح ما يثيره من تساؤلات ذات محتوى أسلوبي<sup>(2)</sup>.

وأما مؤلفه "النص الأدبي من أين؟ وإلى أين؟"، وهو في الأصل عبارة عن محاضرات أعدها خصيصا لتأطير طلبة الماجستير للسنة الجامعية 1980-1981، منها ما هو نظيري خصصه للخوض في فنيات النص الأدبي، ومنها ما هو إجرائي خصصه لتشريح نص لـ "أبي حيان التوحيدي"، من حيث بنيته اللغوية، وزمانه، وحيزه، وما اشتمل عليه من أبعاد صوتية، غير أن الناقد لم يتحرر البنيوية كمقاربة بكل ما تحمله اللفظة من خصوصية منهجية<sup>(3)</sup>.

حيث استهل مقارنته لبنية هذا النص "معززا بثقافة ألسنية معتبرة، طارحا جملة من الأسئلة التي غالبا ما تنصبّ حول "المتغيرات الأسلوبية" في النص، من طراز هذه الاستفهامات: ما أسلوب هذا النص الأدبي؟، ولا نستطيع معرفة أسلوب هذا النص إلا بدراسة أسلوبيته... وللأسلوبية مفاتيح من أهمها الإجابة عن بعض هذه الأسئلة

---

(1)- يوسف وغليسي، الخطاب النقدي عند عبد الملك مرتاض، مرجع سابق، ص 54.

(2)- ينظر: المرجع نفسه، ص 55.

(3)- ينظر: عبد الملك مرتاض، النص الأدبي من أين؟ وإلى أين؟، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.ط،

1983، ص 5.

المختلفة: كيف كانت جمل النص (وحداته)، قصيرة أو طويلة؟، وما النوع المسيطر من هذه الجمل"<sup>(1)</sup>.

ومن المصطلحات النقدية التي وردت في قراءته الأسلوبية؛ حيث نجد لها أصول غربية في الاستعمال مصطلح "poétique" الذي عرّبه بـ"البُويتيك" في كتابه؛ النص الأدبي من أين؟ وإلى أين؟ 1983<sup>(2)</sup>.

ولهذا المصطلح مكانة رائدة ضمن تيارات الحداثة النقدية، "انطلاقاً من المدرسة الفرنسية الحديثة في المعارف الأدبية وهي (بُوايزي) تعود عبر اللغة اليونانية، والأصل التأثيلي في ذلك هو (بُوايزيس)؛ ويعني على وجه التحديد عملية الخلق، أي ما يعبر عنه في غير مجاز لفظي بالوضع أو الإنشاء، ويعبر عنه على وجه الاستعارة بالابتكار والإبداع"<sup>(3)</sup>.

ونظراً لكونه مصطلحاً متعدد الدلالات مفهومه غير قار، إذ يستعصي على التحديد، كما أن مجالات استعماله متنوعة، وفي كل مرة يأخذ بعداً مختلفاً تبعاً لزاوية الاشتغال النقدي التي يتبناها كل باحث<sup>(4)</sup>.

ويقترح مرتاض "مصطلح الشعريات للتمييز بين مفهومين مختلفين في الفكر النقدي الإنساني؛ وذلك بين "الشعرية التي تعني ما في النسج الشعري من جمال يجعله

---

(1) - يوسف وغليسي، الخطاب النقدي عند عبد الملك مرتاض، مرجع سابق، ص 59-60.

(2) - ينظر: عمر عيلان، النقد العربي الجديد (مقاربة في نقد النقد)، الدار العربية للعلوم ناشرون/منشورات الاختلاف، لبنان/الجزائر، ط1، 2010، ص 42.

(3) - عبد السلام المسدي، المصطلح النقدي، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله للنشر والتوزيع، تونس، د.ط، (د.ت.ط)، ص 86.

(4) - ينظر: مولاي علي بوخاتم، مصطلحات النقد العربي السيماءوي (الإشكالية والأصول والامتداد)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، د.ط، 2005، ص 272.

شعرا رفيعا، والشعريات التي تعني عدة معان منها العلم الذي يبحث في نظرية الشعر"<sup>(1)</sup>.

وذلك للتمييز بين الشعرية كسمة جمالية تتخذ ضمن البنية النصية موقعا لها، وبين المجال المعرفي النقدي الذي يتصدى لهذه الظاهرة بالتحليل والمعالجة، وهو ما اصطلح الناقد على تسميته بالشعريات، دلالة على عنايته بالمداخل المصطلحية في ممارسته النقدية إما بتمثّل الموجود، أو تجاوزه بحثا عن بديل يضع حدا لأي التباس محتمل.

ولم يكن مرتاض بعزل عن الحداثة التي شهدتها المنظومة الاصطلاحية في الخطاب النقدي الغربي، ومن ذلك توظيفه للمصطلحين السيميائية sémiologie حسب تصور دي سوسير 1857-1913، و sémiotique من منظور الفيلسوف الأمريكي شارل بيرس 1839-1914.

وقد أحصى يوسف وغليسي لهذين المصطلحين الأجنبيين عددا من المقابلات العربية، ومن ذلك: "السيميائيات، السيميائيات، السيميائية، السيميائية، السيميوتية، السيمييات، السيامة، السماتية، السيمياء، علم السيمياء، السيمولوجيا، السامولوجيا، علم السيمانتيك، علم السيمولوجيا، السيميوطيقا، السيميوتيكا، السيميوتيكية، علم الرموز، الرموزية، علم الدلالة، علم الدلالات، الدلائلية، الدلائليات، علم الدلائل، علم الأدلة، علم الدلالة اللفظية، الدلالية، العلامة، العلاماتية، علم العلامات، علم العلاقات، علم الإشارات، نظرية الإشارة، الأعراضية، دراسة المعنى في حالة سينكرونية"<sup>(2)</sup>.

---

(1)- عبد الملك مرتاض، قضايا الشعريات (متابعة وتحليل لأهم قضايا الشعر المعاصرة)، منشورات دار القدس العربي، وهران، الجزائر، ط1، 2009، ص 21.

(2)- يوسف وغليسي، مناهج النقد الأدبي، جوسور للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 2009، ص 107-108.

أما مرتاض فتبنى مصطلح "السيمائية" من بين هذه المنظومة من المقابلات الاصطلاحية الواسعة ليكون خيارا قارا في مقارباته النقدية، وهذا ما أشار إليه بالقول في كتابه "نظرية النص الأدبي": "أرأيت أن الناس يستعملون عدة مصطلحات لمفهوم واحد، في هذه المسألة، أو مصطلحات لغير ما وضعت له في أصل المواضع العلمية؛ وذلك كما يقع الخلط في الاستعمال إلى حد الاضطراب بين السيميائية، والسيميائيات، والسيميولوجيا، والسيميوتيكيا، أو السيميوتيقا، والسيميائية، وهو مصطلحنا ... ولذلك نحاول أن نبدد شيئا من هذا الغموض"<sup>(1)</sup>.

فهذا الكم من المقابلات لا يضع حدا للالتباس الذي قد يصحب تلك المسافة الفاصلة بين مصطلحين ينحدران من مجالين لغويين مختلفين قلبا وقالبًا، بقدر ما قد يكون باعثا على المزيد من اللبس في الدلالة وبالتالي في الاستعمال.

وقد ظهرت المقاربات السيميائية والتفكيكية بشكل واضح ينم عن طرح أكثر نضجا، في عدد من كتابات مرتاض النقدية، ونخص بالذكر:

1. ألف ليلة وليلة- تحليل سيميائي تفكيكي لحكاية حمال بغداد (1989).

2. أ/ي- دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة (أين ليلاي)

محمد العيد آل خليفة (1992).

3. شعرية القصيدة قصيدة القراءة- تحليل مركب لقصيدة أشجان يمنية

(1994).

4. تحليل الخطاب السردي- معالجة تفكيكية سيميائية مركبة لرواية «زقاق

المدق» (1995).

تجاوز الناقد بهذه المقاربات التي تنوعت في اشتغالها على متون متنوعة شعرا ونثرا مرحلة البنيوية إلى ما بعدها؛ دلالة على انفتاح أفقه النقدي، ومواكبته الحداثة في

---

(1)- عبد الملك مرتاض، نظرية النص الأدبي، دار هومة، الجزائر، ط2، 2010، ص 145.

القراءة والتأويل، حيث أصبحت التعددية المنهجية من وجهة نظره شائعة لدى بعض المدارس النقدية الغربية، وقد أشار إلى موقفه من ذلك بالقول: "ونرى أن لا حرج في النهوض بتجارب جديدة تضي في هذا السبيل بعد التخمّة التي مني بها النقد من جراء ابتلاعه المذهب تلو المذهب"<sup>(1)</sup>.

في ضوء هذه التعددية المنهجية عمد مرتاض إلى اصطناع تصور نقدي زواج خلاله بين الرؤيتين السيميائية والتفكيكية، وكانت البداية بتحليل سيميائي وتفكيكي لحكاية حمال بغداد، وهي واحدة من حكايات "ألف ليلة وليلة"، أما عن مداها الزمني فهي تمتد من الليلة التاسعة إلى الليلة التاسعة عشر؛ حيث "عرض النص على العدسة المجهرية، كي تتسنى له رؤيته من جميع أقطاره، وشتى مستوياته، فكان أن شرّحه من حيث الحدث، والشخصيات، والحيز، والزمن، وتقنيات السرد، وبنية الخطاب، والمعجم الفني"<sup>(2)</sup>.

في دراسته الأولى قاده الممارسة المنهجية القائمة على تلك المزاجية الفريدة بين السيميائية والتفكيك في تحليل نص تراثي كحكاية حمال بغداد، المقتطف من حكايات ألف ليلة وليلة، إلى عدد من النتائج انطلاقاً من مقولات التفكيكية المعاصرة وما رفعته من شعار لانفتاح النص، وما قد يثيره من قراءات متعددة تتجاوز المسلمات، وتكسر آفاق التوقعات، والسمة البارزة هنا تخطيه للرؤية التقليدية التي علق بأذهان الدارسين السابقين بما فيهم المستشرقين، "ومن ذلك تسليمهم بأن ألف ليلة وليلة هي كرنفال فلكلوري تلتقي فيه ثقافات العرب، والهند، والفرس، وشعوب لا حصر لها، وأنها نصوص لقيطة لا أب شرعياً لها، بل اشترك في تأليفها

---

(1)- عبد الملك مرتاض، تحليل الخطاب السردى (معالجة تفكيكية سيميائية مركبة لرواية زقاق المدق)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.ط، 1995، ص 6.

(2)- يوسف وغليسي، الخطاب النقدي عند عبد الملك مرتاض، مرجع سابق، ص 64-65.

مؤلفون أكثر من كل حذب وصوب، في أزمنة مختلفة وأمكنة متباينة تأليفاً، وجمعاً، وترجمة" (1).

ومن المصطلحات التي سجلت حضوراً مميزاً في مقارنة مرتاض لهذا النص الحكائي، مصطلح الحيز "Espace" وذلك بشهادة بعض النقاد أمثال عبد الله أبو هيف؛ حيث تمكن من طرح "فكرة الحيز أو الفضاء في نقده التطبيقي لأول مرة يمثل هذا العمق والشمولية، ولا سيما كتابه «ألف ليلة وليلة، تحليل سيميائي تفكيكي لحكاية حمال بغداد» الجزائر 1993، وقد استفاد في تحليله من إنجازات علم السرد عند جينيت على وجه الخصوص، وبدأ تحليله بأن حكايات ألف ليلة وليلة أزخر الآثار الإنسانية بالتنوع في الحيز، والتنوع في الفضاء، والغربة في المكان، ويلاحظ التقارب بين الألفاظ الحيز، والفضاء، والمكان في تطبيقه النقدي" (2).

وكان مرتاض حريصاً على استعمال مصطلح الحيز، لكون الفضاء مصطلح عام، وقد شاع في استعمال عدد لا حصر له من الحقول المعرفية كالقانون، والعمران، والجغرافيا، والفلسفة وغيرها (3)، أما المكان فـ "يطلق على الحيز الجغرافي المادي" (4)؛ أي الأرض وم (5).

---

(1)- المرجع نفسه، ص 66.

(2)- عبد الله أبو هيف، جماليات المكان في النقد الأدبي العربي المعاصر، مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية، سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية، اللاذقية، سوريا، مج 27، العدد 1، 2005، ص 130.

(3)- ينظر: عبد الملك مرتاض، نظرية النص الأدبي، مصدر سابق، ص 297.

(4)- عبد الملك مرتاض، شعرية القصيدة- قصيدة القراءة (تحليل مركب لقصيدة أشجان يمنية)، دار المنتخب العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1994، ص 179.

(5)- عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية (بحث في تقنيات السرد)، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر، د ط، 2005، ص 186.

أما مصطلح (الحيز) فـ "شديد التسلط بحيث يستطيع أن ينصرف إلى اليابس والمائي، وإلى الملموس من المكان، وإلى مجرد الممتلئ بالهواء والغاز، كما يجب أن ينصرف إلى كل الخطوط، والأبعاد، والأحجام، والأثقال، والقامات، والامتدادات، والأشكال على اختلافها"<sup>(1)</sup>، أي أن هذا المصطلح يشمل كل ما قد يثيره السرد من دلالات تتصل بهذا البعد الفني، الأمر الذي يجعله مانعا جامعا، أكثر من أي اصطلاح آخر.

وصاغ مرتاض مصطلح "التحايز" قياسا على "التشاكل، والتباين، والتمائل، وهو تبادل الحيز مع صنوه وظائف التفاعل، والتداخل، والتخاصب"<sup>(2)</sup>، فالنص محكوم بجملة من الوظائف التي تمنحه الفاعلية والقصدية إذا ما تحقق التكامل فيما بينها، والوظيفة التي يؤديها الحيز في مقابل الوظائف الأخرى إنما هي التحايز. من هذا المنطلق لا يكون مصطلح الحيز "بمجرد مظهر سيميائي أخرس، أو محايد في نسج الخطاب؛ ولكننا نريد أن يكون له شأن من الدلالة والحركة السيميائية التي تحدد معامله، وتضبط وظيفته التي يجب أن تتجاوز الطور التقليدي الذي ينهض على تصور مكان جامد شاحب إلى طور من السيميائية يسخر اللوحات الخلفية لهذا الحيز من أجل منح هذا الخطاب أبعادا دلالية جديدة تفضي به إلى التماسك اللسانياتي، وتجعله مقتدرا على التولج في أعماق الأشياء وأدقها"<sup>(3)</sup>؛ أي أن يتسم بتعددية لا حدود لها في الأشكال التي من الممكن أن يتخذها في النص، وهذا راجع إلى طاقاته الكامنة التي بإمكان الذهن تصورها وتمثلها وفق مستويات إبداعية متنوعة.

---

(1)- عبد الملك مرتاض، شعرية القصيدة- قصيدة القراءة، مصدر سابق، ص 179.

(2)- عبد الملك مرتاض، نظرية القراءة (تأسيس للنظرية العامة للقراءة الأدبية)، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر، دط، 2003، ص 145.

(3)- المرجع نفسه، ص 145.



وفي مؤلفه "أ/ي دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة أين ليلاي لمحمد العيد آل خليفة" تفضل بما الباحث على سبيل تقديم عمل نقدي إجرائي بلمسة حدائثة، و"قبل أن يشرع في تفكيك نص أين ليلاي للشاعر محمد العيد آل خليفة، عبر فصول ستة؛ استهلها بفصل حول بنية القصيدة لدى محمد العيد، بحث فيه الخصائص البنيوية العامة لشعر محمد العيد من خلال 120 نصا كاملا على غرار القراءة التفكيكية التي تشرح النص في ضوء النموذج الذي ينتمي إليه، حيث انتهى إلى أن هذه البنية شبيهة ببنية القصيدة العربية العمودية واستمرار لها؛ من حيث طول نفسها واصطناعها الإيقاعات الفخمة الشهيرة، واختيار القوافي المألوفة، واصطياد الصور المعتادة، واختيار اللفظ وانتقاء العبارة... أما الفصول المتبقية فليست في أغلب غاياتها إلا تفكيكا، وتقويضا لهذه البنية العامة التي تضمنها الفصل الأول بمنهج بنيوي، وإجراءات سيميائية"<sup>(1)</sup>.

ثم صدرت لمرتا ض دراسة أخرى حول "شعرية القصيدة - قصيدة القراءة، تحليل مركب لقصيدة أشجان يمنية" وقد أعاد فيها قراءة هذا المتن وفق منهج مغاير للرؤية التي سبق له أن قارب وفتحها المتن نفسه في دراسة سابقة حملت عنوان "بنية الخطاب الشعري - دراسة تشريحية لقصيدة أشجان يمنية"، سنة 1986م، وقد كتب لها أن تشير أنباء بعض الدارسين<sup>(2)</sup>.

غير أن هذا الاختلاف المنهجي في مقارنة النص الواحد، يعد مكسبا قد لا يتأتى إلا لمن امتلك ناصية النقد وخبر فلسفة القراءة والتأويل، وهذا ما أكده

---

(1)- المرجع نفسه، ص 71.

(2)- ينظر: عبد الملك مرتاض، شعرية القصيدة - قصيدة القراءة، مصدر سابق، ص 27-28-30.

وغليسي بالقول: "إن كتابه النقدي شعرية القصيدة، قصيدة القراءة - تحليل مركب لقصيدة أشجان يمنية، فيشكل تأكيداً ضمناً قاطعاً لتمكن التصور"<sup>(1)</sup>.

وبالمثل نلمح في هذه الدراسة تصورا نقديا مركبا تركيبيا يتحرى الشمول في المقاربة النقدية لقصيدة "أشجان يمنية"، كما يظهر جليا خلالها الانفتاح على مقولات الحدائث الغربية في النقد دلالة على ترفع ذهنية النقدية عند مرتاض عن اعتزال الغرب في مكاشفة ومدارسة النصوص الأدبية، من هذا المنطلق راح يجمع بين تصورات السيميائية والأسلوبية في مزيج لطيف؛ "حيث عاجلها من منظور سيميائي بعرضها على عدسة التشاكل Isotopie الذي هو من أبرز الفرعيات السيميائية التي نقلها جوليان غريماس A.J. Greimas من عالم الفيزياء والكيمياء إلى حقول الأدب والنقد"<sup>(2)</sup>.

والتشاكل كمصطلح يعكس من وجهة نظر مرتاض: "تبادل العلاقات الشكلية بين طرفين اثنين، أو جملة أطراف، غير أننا نريد التوسع في هذا التبادل القائم على التماس التماثل الشكلي بحيث يمتد إلى كل الخصائص المرفولوجية، والنحوية، والإيقاعية، والمعنوية، فتلك هي حدود هذا المفهوم لدينا"<sup>(3)</sup>.

أما عن البعد الأسلوبي في هذه المقاربة فقد فرض حضوره بشكل جلي؛ حيث "حلل مرتاض ضروبا إنزياحية شتى بلغة إبداعية ثانية، تتقصى جمالياتها التعبيرية بوصفها أساليب منحرفة عن النمط الاستعمالي المعياري، قبل أن يؤوب إلى المنظور

---

(1)- يوسف وغليسي، الخطاب النقدي عند عبد الملك مرتاض، مرجع سابق، ص 75.

(2)- المرجع نفسه، ص 76-77.

(3)- عبد الملك مرتاض، نظرية القراءة، مصدر سابق، ص 245.

السيمائي، في معالجة النص على مستوى الحيز، وأخرى على مستوى الرباعية السيميائية: الأيقونة، القرينة، الرمز، الإشارة<sup>(1)</sup>.

وتتكرر هذه المعالجة المنهجية المزدوجة في كتابه "تحليل الخطاب السردى، معالجة تفكيكية سيميائية مركبة لرواية "زقاق المدق" لنجيب محفوظ؛ فبالمثل عمد الباحث إلى ولوج هذه الممارسة بمدخل منهجي مبررا خلاله الخيار المنهجي الذي تبناه استجابة لتقصي الحثيات السردية التي تعتمل في هذا الخطاب الروائي، و"عموما، فقد كان الكتاب دراسة بنوية المنهج أصلا، لكنها تتمفصل على إجراءات منهجية أخرى: معلنة كانت تفكيكية، سيميائية، إحصائية أم غير معلنة أسلوبية، موضوعاتية"<sup>(2)</sup>.

يتأكد مما تقدم انفتاح أفق الاقتراب المنهجي في كتابات الدكتور عبد الملك مرتاض، على مقولات الحدائث النقدية الغربية، ولم يقتصر أمر هذا الانفتاح على المعالجة المنهجية فحسب، بل تعداها إلى توظيف المصطلحات، غير أن تمثله لخطاب الغرب في النقد الأدبي لم يكن آليا جامدا، وإنما كان في حدود استجابة النص، لذا عكست طاقاته النقدية في ضوء المقاربات التي تفضل بها شخصية نراها أكثر ميلا للتجاوز منها إلى التمثّل.

---

(1)- المرجع نفسه، ص 77.

(2)- المرجع نفسه، ص 75.